# المبحث الثاني

## جمالية الطبيعة والعاطفة الإنسانية (الحب)

إنّ الجمال يسعدك ويزرع داخل نفسك الضوء والعطر، ويلهم مشاعرك أجمل الأحاسيس وأروعها. والطبيعة في تناسقها وعطرها وجمال أشكالها تذكّر الشاعر بالجمال والحب. والشعر صورة للحياة أراد من خلاله الشاعر أن يجمع ويمزج بين أهم عنصري الحياة، وهو «الطبيعة التي تُرى من خلال مزاج الشاعر»[1]، فهو عرضٌ لمصائر البشر ضمن إطار الطبيعة وجمالها. وبما أنّ الشعر يستجيب بشكل طبيعي للمشاعر والتجارب الإنسانية، لم يكن من الصعب أن يكوّن مع الجمال المبثوث حوله قيمة جمالية موحدة في قالب شعري جميل؛ «لأنهما رفيقان وأليفان»[2]. يكملان بعضهما بعضًا.

والشعراء اعتادوا تشبيه محاسن المرأة بمفاتن الطبيعة، فجعلوا قدها كالغصن وشعرها كالليل... لكن الشاعر الأندلسي وتأثره بطبيعة الأندلس الخلّابة كان أكثر تجاوبًا وتأثرًا من غيره بجمال الطبيعة، لذلك نراه يمزجها مع جميع الأغراض الشعرية. وكان للغزل النصيب الأوفر من هذا المزج؛ لأنّ الشاعر في أحضان الطبيعة يتذكر حبه وشوقه، فالجمال الموجود حوله يذكّره بجمال الحبيبة، لذا قدّم لنا الشعر الأندلسي أجمل اللوحات الإنسانية التي كوّنها في ظلال طبيعتها الخلّابة. وبهذا المزج جعل بين القيمة الجمالية للطبيعة والحب رابطًا قويًّا، ومقدمًا جمالاً جديدًا مخلوقًا يتميز من الطبيعة والحب نفسه؛ لأنها «من صنع الإنسان، أي إنه جمال مبتدع، مكتشف، مخلوق، إنه انعكاس النفس على الطبيعة أو هو قيام النفس في قلب الطبيعة واكتشاف الحقائق»[3] التي استمدها من الطبيعة الأم المادة الخام ـ وعاطفته الإنسانية، مقدّمًا قيمة جمالية جديدة ضمنها لكن بروحه ونفسه هو

(١) الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس: ٥٤١/١.
(٢) الأدب العربي في الأندلس (تطوره، موضوعاته، وأشهر أعلامه): ١١٩.
(٣) في النقد الأدبي، إيليا الحاوي: ١٤/٢.

(الشاعر)، فحين نقرأ هذا الشعر لا يكون أمامنا عناصر الطبيعة أو المرأة، وإنما العاطفة الإنسانية المشوبة بجمال الطبيعة والمرأة.

والشاعر حين أراد ذكر القيم الخاصة بجمال الحبيبة وجد في الطبيعة المسعف له، فمدّ يده إلى ثمارها وأزهارها ورياضها، وشمّ عطرها ونظر لسمائها...، مكونًا معها القيمة الجمالية لحبه وعاطفته، فالنسيم يتحدث، والنهر يصغي والغصون ترقص والطيور تغني. فتمازج معها واتّحد، ذلك الاتحاد الفني، وهو عائد إلى أننا نجد أنفسنا في الموضوعات التي نمعن النظر إليها حتى نصبح معها شيئًا واحدًا، فيتحقق بذلك ذكرًا لقيم وجمالية الطبيعة والعاطفة الوجدانية تجاه الحبيب، فنظم شعرًا نابضًا بالحياة مشعًّا بالجمال والبهجة(١). وهم بذلك رومانتيكيون ضمن شرطها «في محاكاة الطبيعة والنقل عنها على شرط أن يضيف الشاعر إليها من عاطفته ما يعدل منها أو يبعث الحياة في جمادها»(٢).

ولكن الشاعر الأندلسي لم يكن ينظر إلى الطبيعة على أنّ فيه نقصًا أو أنها جماد، بل الطبيعة عنده هي الحياة بكل معنى الكلمة. والمرأة أهم عناصر تلك الحياة. ولذا كان من الطبيعي تمازجهما في كيان الشاعر، فالأندلسي لا يذكر الطبيعة إلا في رحاب الحب بل لا يذكر الحب إلا في رحاب الطبيعة، وهم بذلك يمنحون شعرهم لونًا بهيجًا من الجمال تقدمه الطبيعة مع عاطفتهم، ومن هنا كانت الحبيبة روضًا وجنة وشمسًا... فالعلاقة شديدة بين جمال المرأة والطبيعة داخل كيان الشاعر ومشاعره.

والشاعر حين يذكر مظاهر الطبيعة لا يصف لوحة ساكنة لا حياة فيها، وإنما يربطها بوجدانه، ومكونًا مع عاطفته قيمة جمالية في انسجامهما في تكوين الحياة، وبثها في كل موات من شعور وجماد. لذا لم يكن هذا الشعر سطحيًّا لا فكر ولا هدف من ورائه كما زُعِم(٣).

فهذا ابن دراج القسطلي يجمع بين حبه ومظاهر الطبيعة مكونًا قيمة جمالية تعبر عن نفسية الشاعر تجاههما، يقول:

| | |
|---|---|
| لَعَلَّ سَنَا البَرْقِ الّذِي أنا شائِمُ | يهيمُ منَ الدُّنيا بِمَنْ أنا هائِمُ |
| أمَا فِي حَشَاهُ مِن جوايَ مخايِلٌ | أما فِي ذُرَاهُ من جُفُوني مَيَاسِمُ |

(١) ينظر: الشعر في ظل بني عباد: ١٥٨-١٥٩.
(٢) م. ن: ١٥٩.
(٣) ينظر: الشعر الأندلسي، غارسيا غومس: ٢٥، وهذا رأيه في الشعر الأندلسي.

لقد بَرَّحَتْ منهُ ضُلُوعٌ خوافِقٌ ... وَقَدْ صَرَّحَتْ منه دموعٌ سواجِمُ
ونَفْحُ صَبًا يَهْفُو عَلَى جَنَباتِهِ ... كتَصْعِيد أَنفاسي إذَا لامَ لائِمُ
وتحنانُ رَعْدٍ صادِعٍ لمتُونِهِ ... كما زَفَرَتْ نَفْسِي بِمَنْ أنا كاتِمُ
وَمِيضٌ تَشَبُّ الرِّيحُ والرَّعْدُ نارَهُ ... كما شَبَّ نيرانَ المَجُوسِ الزَّمازِمُ
حَمِيل بحَمْلِ الرَّاسِياتِ إلَى الَّذِي ... تَحَمَّلَنِي عنه القِلاصُ الرَّوَاسِمُ
كفانِي الْتِماحَ الشَّمْسِ والبَدْرُ وَجْهُهُ ... وَمَا اقْتَبَسَتْ منْهُ النُّجومُ العواتِمُ
وما تَجْتَنِي من طِيبِ أَرْدَانِهِ الصَّبا ... ومن وَرْدِ خَدَّيْهِ الرِّياضُ النَّوَاعِمُ
فَلَهْفِي عَلَى قَرْنٍ من الشَّمْسِ ساطِعٍ ... تَجَلَّلَهُ كِسْفٌ من اللَّيْلِ فاحِمُ[1]

لقد جمع معاني الحب والغزل من هيامٍ ودمعٍ وخفقانِ قلب...، ووظّف معها مظاهر الطبيعة من برقٍ وريح الصبا... كي يعبر بها عن دموعه وأساه، وقد صوّر الرعد والريح والشمس والبدر لرسم محاسن الحبيبة والتشبيب بها. وتكمن جمالية هذه القصيدة في تمازج مكوناتها وانسجامها، فالشاعر يبدأ بذكر معاناته ولوعته وشوقه، ثم يذكر حبه وهيامه حين يرى البرق في السماء فهي دليل لوعة الشاعر في حشاه، فصراخه ودموعه كصوت الرعد وهطول المطر، فكلاهما يصرخان ويذرفان الدموع، وأنفاسه في حرارتها كريح الصبا حين تحمل النسائم للأحباب، فلها دوي صوت بعيد، والشاعر بعد ذكره ألمه وحرارة فؤاده يعلل سببه بحبيبٍ هذه أوصافه، فوجهها الشمس والقمر ضياءً ونورًا، وهي التي أمدّت النجم بعضًا من نورها. وريح الصبا قد استعار منها طيبها، فهي التي تشذو بشذاها عليها، وتعطي بتورد خديها الورد الذي في الرياض لونها وعبيرها. هذا الجمال الذي يتلهف الشاعر إليه، كيف لا وهي المرأة المثالية التي أرادها الشاعر، وأحب أن تكوّن مع قيم الطبيعة وجمالها صورة رمزية عن حالته النفسية.

وتكمن القيمة الجمالية للقصيدة في أنّ الشاعر حين جلب مظاهر الطبيعة من (برق ورعد وريح ومطر...) وكلها عناصر فيها حركة وحيوية وصوت، دلالة على ألمه ونفسيته التي لا تسكن، فهي تصرخ وتستنجد، ثم يذكر محاسن مَن هام بها دلالة على

(١) ديوان ابن دراج القسطلي: ١٥٨-١٦٠. مياسم: المِيسَم والوسامة: أثر الحسن. ينظر: لسان العرب: مادة (وسم). الزمزمة: صوت الرعد. ينظر: لسان العرب: مادة (زمم)، القلاص: القَلوص: هو أول ما يركب من إناث الإبل. ينظر: لسان العرب: مادة (قلص). الرواسم: الراسم هو الماء الجاري. وناقة رسوم: تؤثر في الأرض من شدة الوطء. ينظر: لسان العرب: مادة (رسم).

النعومة والجمال ومعللاً سبب حبه أنه سُحر بهذا الجمال، ومن ثَمَّ يصل إلى تكوين صورة جمالية يجمع فيها لوعة القلب وأسبابها وبداعة المنظر اللذينِ سُحر بهما ووصفهما.

وأما الشاعر أحمد بن فرج الجياني فيقدم لنا نصًّا غنائيًّا يعبر فيه عن تجربة ذاتية يسرد فيه موقفًا من مواقف الحب، وهو مشهد للقاءٍ حدثَ تحت جنح الليل، يقول في وصف ذلك المشهد:

وَطَائِعَــةِ الوِصَــالِ عَــدَوْتُ عَنْهَــا ... ومَــا الشَّــيْطَانُ فيهــا بالمُطَــاعِ
بَــدَتْ فــي اللَّيْــلِ سَــافِرةً فَبَاتَــتْ ... ديــاجي اللَّيْــلِ سَــافِرَةَ القِنَــاعِ
وَمَــا مِــنْ لَحْظَــةٍ إلاَّ وفيهــا ... إلــى فِــتَنِ القُلُــوبِ لِهَــا دَوَاعِ
فَمَلَّكَــتِ النُّهَــى جمحــات شَــوْقِي ... لأجْــرِيَ فــي العَفَــافِ علــى طِبَــاعِي
وَبِــتُّ بِهَــا مَبِيــتَ السَّــقْبِ يَظْمَــا ... فَيَمْنَعُــهُ الكِعَــامُ مِــنَ الرِّضَــاعِ
كَــذَاكَ الــرَّوْضُ مَــا فيــهِ لِمِثْلِــي ... سِــوَى نَظَــرٍ وشَــمٍّ مِــنْ مَتَــاعِ
وَلَسْــتُ مِــنَ السَّــوَائِمِ مُهْمَــلاَتٍ ... فأَتَّخِــذَ الرِّيَــاضَ مِــنَ المَرَاعِــي[1]

إنّ الشاعر يقدم بيانًا لذاته والتعبير عما اعتلج فيه قلبه من صراع داخلي من دون التركيز على الآخر (الحبيبة) التي تنقاد خلف رغبتها وإغوائها الشاعر الذي يقف أمامها محكمًا عقله في مشاعره حفاظًا على العفة، فهو يقتصر على الشم والنظر، كما الروض بالنسبة للإنسان الذي يكتفي منها بالنظر والإحساس دون الأكل الذي هو من عمل البهائم.

وهو أراد أن يبين القيمة الجمالية للمحبوبة من خلال مزج ذلك بعناصر الطبيعة، فزوال سواد الليل المتمثل بـ (قناعه) عند ظهورها سافرة يوحي بروعة وجهها وإشراقه، والشاعر يستخدم ثنائية ضدية بين انقياد صاحبته لرغبتها في الوصال وعفته عنها برفضه الوصال (وطائعة الوصال عدَوت عنها)، ثم نرى صراعًا آخر داخل نفسية الشاعر (فملكت النهى جمحات شوقي) بين عقله ورغبته بين شعوره ولا شعوره، فهو المشتاق إلى جمال المحبوبة، وهو متعطش إلى ممارسة اللذة (الرضاع) بحرية، لكن العقل (الكعام) يحول بينه وبينها، لذلك رأيناه يقصر متعته وجعل القيمة الجمالية من وراء حبه هو في النظر والشم دون اللمس. ويعلل هذه الرغبة في محبوبته أنها حين أسفرت عن وجهها رأى جمالاً يفتن الطبيعة لروعته، وهنا تبدو النزعة الرومانتيكية عنده، فالطبيعة

(١) أحمد بن فرج الجياني (بحث): ٢٢٤-٢٢٥. السقب: ولد الناقة. ينظر: لسان العرب: مادة (سقب). الكعام: شيء يُجعل في فم البعير. ينظر: لسان العرب: مادة (كعم).

تشارك الشاعر في إحساسه وروعة هذا الجمال تحمله على رؤيته لصاحبته رؤية عامة لا خاصة.

ويأتي أخوه أبو عثمان سعيد بن فرج الجياني (ت ق٥هـ)[١] بجمال الطبيعة باثًّا فيه مشاعره وحبه، يقول:

الـــرَّوْضُ زَاهٍ فَقِـــفْ عَلَيْـــهِ ... وَاصْـــرِفْ عَنَـــانَ الهَـــوَى إِلَيْـــهِ
أَمَـــا تَـــرَى نَرْجِسًـــا نَضِـــيرًا ... يُـــومِي إِلَيْنَـــا بِمُقْلَتَيْـــهِ
نَشْـــرُ حَبِيبِـــي حَكَـــى شَـــذَاهُ ... وَصُـــفْرَتِي فَـــوْقَ وَجْنَتَيْـــهِ
فَهُـــوَ أَنَـــا تَـــارَةً وَحُبِّـــي ... أُخْـــرَى وِفَاقًـــا لِحَالَتَيْـــهِ[٢]

فالطبيعة عنده «لم تعد مجرد ألوان وذبات وظواهر، بل أخذت بعدًا آخر فيه إنسانية مصورة على مزاجه وذوقه»[٣]، فهو يلوذ إليها حين حزنه وفرحه. والشاعر كشف عن أحاسيسه ومشاعره بين أحضان الطبيعة، مكونًا بذلك قيمة فنية، فخياله قد صوّر جمال الروض وزهر النرجس ذات العينين الواسعتين، محمّلاً إياها لونًا عاطفيًّا وهو لون وقعها عنده، أي وقع جمال الطبيعة على نفسية الشاعر والحبيبة. وهو لم ينظر لما في الطبيعة كشيء خارج عن كيانه، بل صورها من خلال عواطفه وأحاسيسه، فتجلى التشخيص عنده، وكل هذا من عمل خيال الشاعر، الذي حقق هذه العلاقة التي تكونت بين الشاعر ــ بعواطفه الإنسانية ــ وجمال الطبيعة الممثل بعناصرها من روض وزهر... إلخ، وكانت العاطفة الرابط الخفي الذي مزج من خلاله الشاعر جمال صوره.

وهذا عبيد الله بن يحيى بن إدريس (ت٣٥٢هـ)[٤] يقول:

يغـازلُ عـينَ الشَّـمسِ حتَّـى تـرَى لهـا ... إليـه حنـينَ المسـتكينِ مـنَ الوجـدِ
إذا اشـتهتِ الأنفـاسُ طيـبَ نسـيمهِ ... أتاهـا بـه مـن نافحـاتِ الصَّـبا مُهـدِ
فـإنَّ مجـالَ العـينِ فـي رونـقِ الضُّـحَى ... عليـه مجـالُ اللّحـظِ فـي زَهَـرِ الخـدِّ

(١) سعيد بن محمد بن فرج أبو عثمان، عالم أديب شاعر، وهو أخو الشاعر أحمد بن فرج صاحب كتاب (الحدائق). ينظر: جذوة المقتبس: ٣٥٤/١، وبغية الملتمس: ٣٩١/٢، والمغرب في حلى المغرب: ٥٧/٢.

(٢) المغرب في حلى المغرب: ٥٧/٢.

(٣) الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس: ١٢٠.

(٤) عبيد الله بن يحيى بن إدريس الوزير أبو عثمان، من أهل قرطبة، كان وافر الأدب، كثير الشعر، جليلاً في أيام عبد الرحمن الناصر. ينظر: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ٣٢٠، وجذوة المقتبس: ٤٢٥/٢.

إذا مـــا جَنَينـــا منـــه حكَـــى لنـــا تـورُّدُهُ مـا فـي الخـدودِ مـن الـوردِ[1]

إنّ فصل الربيع وخضرته وجماله له الأثر البالغ عند المحب، والشاعر أحس جمال الطبيعة في دواخل نفسه، لذلك نراه ينسب إليها نوعًا من العواطف الإنسانية العائدة إليه، وهو في هذا يقدم قيمة جمالية لها، فذاته تقدر الأشياء وتتذوق جمالها مدركًا تأثير ذلك في المتلقي. والشاعر في نصه شخّصَ عناصر الطبيعة، لذلك نحن أمام لوحة عاطفية تحمل أحاسيس الشاعر وحالته النفسية التي كان عليها أمام جمال الربيع، فنراهُ يَطرَبُ بطربها فهو كالربيع في بثه الحياة والأمل، فوجدنا العاطفة الإنسانية عنده مستبشرة سعيدة كسعادة الأرض وما فيها حين ربيعها.

وجمال الطبيعة يتجلى بشكل كبير في غزل ابن زيدون وعاطفته، كيف لا وهو العاشق الولهان، «بحيث يصعب التمييز في كثير من الأحيان بين معاني الغزل وبين معاني وصف الطبيعة»[2] عنده، فتمازجهما في نفسية الشاعر قد وحّد القيم الجمالية الخاصة بهما، فهو يقول في قصيدته التي قالها عندما كان بين أحضان الزهراء يتنزه متذكرًا عاطفته وما في قلبه نحو الحبيبة:

إنّـــي ذَكَرتُـــكِ بِـــالزَّهراءَ مُشـــتاقا وَالأُفقُ طَلقٌ وَمَرأى الأَرضِ قَد راقا
وَلِلنَّســـيمِ اِعـــتِلالٌ فـــي أَصـــائِلِهِ كَأَنَّـــهُ رَقَّ لـــي فَاعتَـــلَّ إِشـــفاقا
وَالـرَّوضُ عَـن مائِـهِ الفِضِـيِّ مُبتَسِـمٌ كَمـا شَـقَقتَ عَـنِ اللَّبّـاتِ أَطواقـا
نَلهـو بِمـا يَسـتَميلُ العَـينَ مِـن زَهَـرٍ جـالَ النَّـدى فيـهِ حَتّـى مـالَ أَعناقـا
كَـــأَنَّ أَعيُنَـــهُ إِذ عايَنَـــت أُرَقـــي بَكَـت لِمـا بـي فَجـالَ الـدَّمعُ رَقراقـا
وَردٌ تَـــأَلَّقَ فـــي ضـــاحي مَنابِتِـــهِ فَازدادَ مِنهُ الضُّحى في العَينِ إِشراقا
سَـــرى يُنافِحُـــهُ نَيلـــوفَرٌ عَبِـــقٌ وَسـنانُ نَبَّـهَ مِنـهُ الصُّـبحُ أَحـداقا[3]

استطاع الشاعر أن يودع قصيدته أسرار فنه وروعة شاعريته بين حسن الإيقاع وسحر النغم، متخذًا من الأجواء الجميلة بين أحضان الطبيعة التي كان يلاقي فيها (ولّادة) من ربيع وأنسام ورياض ومياه وأزهار... ملاذًا له. والشاعر يُشرك معه الطبيعة في أحاسيسه، فأنسامها عليلة إشفاقًا عليه، ثم نرى مظاهر السعادة في ذكره وطلب ترقيق قلب

(١) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ٤٤.
(٢) ملامح الشعر الأندلسي: ٢٠٨.
(٣) ديوان ابن زيدون: ١٧١.

الحبيبة، فالروض مبتسم والزهر نديّ...، وهذه المظاهر تذكّره بولّادة؛ لأنها جزء من الطبيعة أو هي الطبيعة نفسها، لكن التوازي بين منظر الطبيعة الضاحك المشرق والشاعر الحزين قد زاد في عمق المفارقة، فهو لم ينجح في إثارة الطبيعة للعطف عليه حين ذكر اعتلال النسيم وتخيل بكاء الزهر بماء الندى إشفاقًا ومشاركةً له؛ لأنه أمعن في تصوير الاستبشار والتفتح الذي أودعه الطبيعة. وتكمن القيمة الجمالية لهذه القصيدة في تغني الشاعر بجمال الطبيعة وروعة ما تعكسه مظاهرها من مشاعر تذكّر بجمال الحبيبة. ومازجت هذه الطبيعة مشاعر الشاعر الحزين، وهو ينطلق من جمالية المنظر إلى تذكر الظرف الذي جمعه بمن يحب زمانيًّا ومكانيًّا مع اختلاف الشعور؛ لأنّ الحبيبة كانت فيما مضى حاضرة معه، أما الآن فهي غائبة (ذكرتُكِ)، مع حضورها الشعوري لدى الشاعر. وإبداع الشاعر لم يقتصر على «تصور تجربة ماضية وقعت فيها أحداث رافقتها ألوانٌ من المشاعر المتضادة من سعادة وحزن، بل تعبر عن مشاعر تولدت في لحظات الإبداع أيضًا يرافقها بعض ذكر الماضي القديم»(١)، وهذا يولّد صدقًا للمشاعر وشدة للانفعال، كما نجد التماهي والتمازج بين الروض الذي يكشف عن مائه الفضي ما يمكن أن يخفيه (والروض عن مائه الفضي...)، والشاعر الذي درج على كشف أطواق الثياب عن حبيبته.

والقصيدة روح الشاعر قدمها لنا من خلال العاطفة وجمال الطبيعة، فهو العاشق الذي فقد معشوقه ولم يبق له سوى الذكرى، فهنا كانت له وقفة، وهنا قد سار معها، فالأرض والنسائم تحمل عطرها، والمياه صورتها باقيةٌ على صفحتها، وهاهي أذغام الربيع وجمال زهرها المتورد بحمرة خدها تذكّر المشتاق بحبه. فقيمتها في مخيلته وداخل نفسها باقية كبقاء جمال الطبيعة الأزلي.

وهذه الطبيعة تشارك الشاعر مشاعر التوديع عند ابن هذيل، يقول:

لـــم يرحلُـــوا إلاّ وفـــوقَ رحـــالهمْ ... غـيمٌ حكَـى غـبَشَ الصَّـباحِ المُعتلـي
وعلـــى هـــوادِجِهمْ مُجاجـــاتُ النَّـــدَى ... فكأنَّهـــا مُطـــرتْ بـــدرٍّ مُرســـلِ
لمَّـــا تحرَّكـــتِ الرّكـــابُ تنـــاثَرَتْ ... مِـن فـوقهمْ فـي الأرضِ بـين الأرحُـلِ

(١) الشعر الأندلسي نصًّا وتأويلاً: ٧٨.

فبكيتُ لو عَرَفوا دموعيَ بينها لكنَّها اختلطتْ بشكلٍ مُشكلِ[1]

فالطبيعة تستجيب لمعاناته وهو يودع حبيبته، فالغيم تغطي رحالهم وعلى هوادجهم الندى كدُرٍّ مبثوث حولهم حين تحركوا وشدوا رحالهم، فتمازج مشاعره مع الطبيعة من خلال تناثر الندى الذي هو كالدر وبكائه، فاختلط الندى مع دموعه إذ شكّلا جدولاً يسير نحو الحبيب. والصورة التي قدمها الشاعر لم تكن جديدة، إلا أنها تعبر عن صدق العاطفة وجمالها الذي أراد الشاعر أن يوصله لنا من خلال هذا التماهي بين مظاهر الطبيعة والحالة الشعورية التي كان عليها الشاعر لحظة الوداع.

وأما وداع الشاعر الشريف الطليق فكان مختلفًا، فهو يشرك عناصر الطبيعة شوقه ويحمّلها عواطفه ومشاعره، يقول:

ودّعت من أهوى أصيلاً ليتني ذقتُ الحِمامَ ولا أذوقُ نَواهُ
فوجدتُ حتى الشمس تشكو وجدَهُ والوُرْقُ تندبُ شجوَها بهواهُ
وعلى الأصائلِ رِقّةٌ من بعدِهِ فكأنّها تَلْقى الذي ألقاهُ
وغدا النسيمُ مبلِّغًا ما بيننا فلذاك رقّ هوًى وطابَ شذاهُ
ما الروضُ قد مُزِجتْ به أنداؤُهُ سحرًا بأطيبَ من شذا ذكراهُ
والزهرُ مَبسمُهُ ونكْهَتُهُ الصَّبا والوردُ أخضلَهُ النّدى خدّاهُ
فلذاك أُولَعُ بالرّياضِ لأنّها أبدًا تذكّرُني بمَن أهواهُ[2]

إنّ حبَّ الشاعر لجمال الطبيعة (الرياض) معللٌ بتذكيره بمن فارق، فهما صنوان جمالاً ورقة، والشاعر حمّلَ الطبيعة رسالته لتبلّغ ما استودع قلبه من مشاعر وأحاسيس لتلك الحبيبة، التي رقتُها كرقة نسائم الأصيل وابتسامتها كابتسامة الروض وخدّها كالورد، وقيمة الطبيعة الجمالية تكمن في انسجامها مع مشاعره وأحاسيسه فهي تشكو وجده (فوجدتُ حتى الشمس تشكو وجدهـ) وتندب لفراقها، وتبلغ رسائل الهوى بينهما، وكان هذا سببًا في رقتها وطيب شذاها لأنها تحمل أعذب وأرق العواطف الإنسانية الجياشة التي تفوح بعطر الحبيب، والشاعر يفضل عطر الذِّكر على شذى الروض وعطره لأنّ هذه الحبيبة كالزهر والورد مبسمًا ونكهة. فبالموازنة والمشاركة قدّم الشاعر جمال الحبيبة

(١) شعر يحيى بن هذيل: ١١٦.
(٢) مع شعراء الأندلس والمتنبي: ٧٧. أخضله: الخَضَل: هو كل شيء ندٍ يترشش من نداه. ينظر: لسان العرب: مادة (خضل).

التي امتزجت بجمال الطبيعة، وكوّنا قيمة جماليّة واحدة تعبر عن الإحساس والعاطفة الإنسانية تجاه كل منهما.

وابن عبد ربه يريد أن ينسى ويسلو عن الحبيبة وذكرها، لكنه يفشل في ذلك؛ لأن (درعها) ــ كما يسميه ــ لم يصمد أمام عاطفته التي يذكّره بها نوح الحمامة، يقول:

سألبسُ للأيامِ دِرعًا من العَزَا ... وإن لم يَكُن عند اللقا بحَصِينِ
فكيفَ ولي قلبٌ إذا هَبّتِ الصَّبا ... أهابَ بِشَوقٍ في الضلوعِ دَفينِ
ويهتاجُ منه كُلُّ ما كان ساكنًا ... دُعاءُ حَمامٍ لم يَبِتْ بوكونِ
وإنّ ارتياحي من بُكاءِ حَمامةٍ ... كذِي شَجَنٍ داويتَهُ بشجونِ
كأنّ حَمامَ الأيكِ حِين تَجاوبتْ ... حزينٌ بكَى من رَحمةٍ لِحَزين(١)

كيف لا يستجيب وللشاعر قلبٌ مرهف تتلاعب به ريح الصبا كلما هبّ، ويزيد شوقه كلما سمع بكاء الحمام وشجوه، فدواؤه في دائه؛ لأنّ سماع الشجن أعاد له الحياة، وتكمن قيمة هذه المشاركة جماليًّا في التجاوب والانسجام الحاصل بين العاطفة الإنسانية وحزن الحمامة وبكائها، فالحزين (الحمامة) بكى رحمةً للحزين (الشاعر) فهما كيان واحد في تكوين هذه القيمة الجمالية للبكاء والتذكر.

ويشتدُّ الشوق كثيرًا بأبي عامر بن شُهيد ويهيج هذا الشوق شجو الحمامة وصوت الريح في قوله:

ما أطّرَبَتْ فَوْقَ الغُصُونِ حَمامةٌ ... إلا رَأَيْتَ دُمُوعَ عَيْنِي تُسْكَبُ
وإذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ أَلْفَيْتَنِي ... بَيْنَ الصَّبَابَةِ والأَسَى أَتَقَلَّبُ
يا عاذِلِي في الحُبِّ مَهْلاً بالأَذى ... لَوْ كُنْتَ تَعْشَقُ ما ظَلَلْتَ تُؤَنِّبُ
كم حاوَلَتْ نَفْسِي السُّلُوَّ فطالَبَتْ ... أَسْبَابَهُ جُهْدًا فعَزَّ المَطْلَبُ(٢)

إنّ الشاعر وصل إلى حالة من الشوق للحبيب جعل منه لا ينظر إلى شيء أو يسمع صوته إلا ويرى فيه خيالاً للحبيب وذكرى لشمائله فلا تهب ريح أو يشجو حمام إلا وجد نفسه يبكي وينتحب، يتقلب بين الصبابة على حزنه وأساه كما يتقلب المكلوم الثاكل أو المصاب بشيء عظيم، والشاعر حين قدّم أسباب شوقه في سماعه للحمام والريح وتذكيرهما بالحبيب أراد أن يبعد عنه ملامة العاذل الذي لا يعرف عن حاله ومساعي

(١) ديوان ابن عبد ربه: ١٦٤-١٦٥. الوكن: عش الطائر. ينظر: لسان العرب: مادة (وكن).
(٢) ديوان ابن شهيد: ٨٨.

السلو الذي أراده، وكيف يكون له السلو وكل ما حوله يذكّره بها. وهنا تكمن القيمة الجمالية لعاطفته التي تتعلل بالطبيعة في تذكيره وإبعاده عن السلوان والرد على من يعذله.

والطبيعة تحزن بحزن الشاعر (الإنسان المرهف) وتذرف الدموع عليه فهي كحاله في الفراق وفي عشقه، فالأرض تتشوق لما تجود به السماء وما تحمل الريح، والإنسان يتشوق لمن يعشق علَّها تجود عليه بنظرة، فهذا أبو بكر بن القوطية (ت ق٥هـ)، يقول:

قد أخذَ الأفْقُ في البكاءِ ... واغرورقتْ مُقلةُ السماءِ
فالأرضُ إنْ أظهرتْ جفاءً ... أرسلَ عينيهِ بالبكاءِ
كأنّهُ عاشقٌ مَشُوقٌ ... يشكو هواهُ إلى الهواءِ
مرجّيًا أن يُلينَ منها ... ما أظهرتْهُ من الجفاءِ
حتى إذا راضَها سَفيرًا ... حدّتْ بوجهٍ من الحياءِ
وانتقبتْ بالنباتِ عنهُ ... والتحفتْ منهُ في رداءِ[1]

لقد جعل الشاعر بين الأفق والأرض تعاطفًا وحبًّا، فهما كالحبيبين يحدث بينهما ما يحدث بين المحبين من وصالٍ وصدود، فهي تبكي بأدمعٍ أسًى وحزنًا لوقوع جفوة وصدود بينهما. فالأرض (الحبيبة) تتمتع وتصد رسول هواه (الهواء)، فهي متلحفة بنباتها كأنها امرأة خجلى. وهنا نلاحظ دقة الشاعر في نقل جمال الربيع وكثرة النبات فيه، فهو يقدم قيمة جمالية للطبيعة من خلال هذا المشهد العاطفي الذي كونه لعناصر الطبيعة، ففي تشخيصه الذي هو أشبه بالأقصوصة عمل على تكوين العلاقات الإنسانية بين عناصر الطبيعة، من خلال الفكرة الرئيسة في النص التي شكلت روح النص وهي علاقة (الحب) من خلال صفاته وعلاماته من بكاء وجفاء، وشكوى وصدود...، جاعلاً من (الحزن) المتمثل بألفاظ (البكاء والجفاء والشكوى) القيمة الجمالية للنص ومحورها الرئيس التي أعطت للنص تداعيًا وانسيابًا من خلال نزول المطر واخضرار الأرض.

إنّ الشاعر الأندلسي عرف في جمال الطبيعة تجاوبًا مع حبه وعاطفته تجاه الآخر، فحين أراد أن ينقل جمال المرأة إلى حيز القيمة والوصف أخذ يرسم لها بريشة الفنان الحاذق صورة زاهية الألوان، جميلة التعابير، رقيقة الإحساس، من خلال مفرداتها

(١) شعر أبي بكر بن القوطية من أعيان المائة الخامسة الهجرية، (بحث): ٩١.

الموصولة بطبيعة الأندلس وجمالها، مُبديًا في ذلك موقفه تجاه هذا الجمال الماثل أمامه (الطبيعة)، فالرمادي يظهر جمال المحبوب من خلال الطبيعة ومظاهرها في مثل قوله:

وتنعَّمتُ في خدودٍ صِباحٍ زائداتٍ علَى بياضِ الصّباحِ
صار فيها الخيلانُ في الوردِ شِبهًا للغوالي في أحمرِ النُّقَّاحِ[1]

فالشاعر يتنعم بخدود حبيبته التي هي الصباح بل نورها وبياضها أبهى وأجمل، وهي قد اكتست بحمرة التفاح دلالة على تورّدها وزيادة في جمالها. والرمادي يجعل من وصاله ومن جمال حبيبته قيمة جمالية، فالشاعر حين فرحه واستبشاره بقدوم من يحب ووصاله تنطق جوارحه بذلك، فهي التي تنعمت بهذا الجمال نظرًا ولمسًا.

فالعاطفة تتملّك الشاعر وهو أسير هذا الامتلاك، مكوّنًا قيود هذا الامتلاك مشاعره وأحاسيسه، فبالوصال يعطيه الاستبشار، فيرى ما حوله جميلاً منعمًا، فالنور في الوجوه والأرض تستبشر بقدوم المطر والربيع... إلخ. وحين الشوق أو الفراق تسوَدّ الدنيا وتنقطع الآمال فيعطي لكل ما حوله من قلقه وحيرته وألمه وحزنه، فالسماء تغضب وتُسقط لهيبًا حين تبرُق وتصرخ في رعدها، والريح تعصف وتزمجر من حوله... إلخ. فالطبيعة كوّنت مع مشاعر الإنسان عاطفة موحدة ذات قيمة جمالية مبثوثة في الأشياء كلها. وهذا ما وجدناه من خلال ما قدمنا من أنموذجات شعرية، أعطت صورة واضحة لقيمة الطبيعة ومدى مشاركتها عاطفة الإنسان جماليًّا وفنيًّا.

وجمال الطبيعة لا يكفي وحده في تكوين القيمة، فالطبيعة بجمالها موجودة في أماكن مختلفة لم تجد من يحس بها وبقيمتها، لكن في الأندلس وافق وجود الإنسان العربي الذي عُرف برهافة الإحساس ورقته، المتأمل لما حوله من جمال وطبيعة، ولذا «فاقوا المشارقة في شعر الطبيعة كمًّا وكيفًا، وتوسعوا ونوّعوا في موضوعاته توسعًا وتنوعًا فاق كل اعتبار، كما أنهم كانوا فيه أكثر براعة وابتكارًا وتجديدًا ودقة تصوير»[2].

فالأندلسي متأثر بجمال الطبيعة، فنراه يقف أمام رياضها وجمال زهرها واختلاف تكوين أرضها، مشدود الألباب إليها، ومرهف الإحساس بجماله، فهذا أبو الحسن بن علي[3] يقول:

جمالٌ يُحيِّرُ لُبَّ الفتى ويُكسِبُهُ مِن سرور دَهَشْ[4]

(١) شعر الرمادي: ٦١.
(٢) الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق: ٢٩١.
(٣) لم أجد له ترجمة في كتب التراجم.
(٤) البديع في وصف الربيع: ١٨.

فيزيد الجمال وسماته في هذا التباين الانجذاب والتعلق ويحير القلوب، فضلاً عما يبعثه في نفسية الإنسان ومشاعره من سرور وبهجة تريح الأرواح وتسكن القلب. ومن هنا قدم الشاعر الأندلسي لوحات لهذا الجمال ذات ألوان عِدّة متناسقة التكوين، مضيفًا إليها من عاطفته وأحاسيسه لبعث الحياة والروح في مكوناتها بشكل متجدد من خلال التشخيص وما له من وقع في النفس وتأثير فيها.